REVUE EGYPTIENNE
DES ÉTUDES HISTORIQUES

الهيئة المصرية العامة للكتاب
رئيس مجلس الإدارة
د. هيثم الحاج علي

المجلة التَّاريخيَّة المصْريَّة

مجلةٌ دوريةٌ تُصْدِرُها

الجمعية المصرية للدِّراسات التاريخية

حقوق الطبع محفوظة
للهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتاب
99/9440

الترقيم الدولي
977-5366-11-9

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

١٤٤٠هـ/٢٠١٨م

قطعة ٤ بلوك ٧ ـ المنطقة التاسعة ـ شارع د. رؤوف عباس ـ مدينة نصر ـ القاهرة
تليفون : ٠١١٢٧٣٨١٩١٢ ـ ٢٤٧٢٨٢٩٤ ـ ٢٤٧٢٨٢٩٦ ـ فاكس : ٢٤٧٢٨٢٩٨
Email: Seehist1945@yahoo.com

الهيئة المصرية العامة للكتاب

المجلة التاريخية المصرية

REVUE EGYPTIENNE
DES ÉTUDES HISTORIQUES

تُصدرها

الجمعية المصرية للدِّراسات التاريخية

المراسلات ـ الأستاذ الدكتور أيمن فؤاد سيد

رئيس مجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

المجلد الحادي والخمسون

القاهرة

٢٠١٧م

هيئة التحرير

أ.د. أيمن فؤاد سيد ـ رئيس التحرير
أ.د. أحمد زكريا الشلق
أ.د. أحمد السيد الشربيني
أ.د. أشرف محمد مؤنس
د. محمد فوزي رحيل

الهيئة الاستشارية للمجلة

أ.د. إسحق عبيد
أ.د. السيد فليفل
أ.د. عاصم الدسوقي
أ.د. عفاف سيد صبرة
أ.د. محمد صابر عرب
أ.د. محمد السيد عبد الغني
أ.د. محمد عيسى الحريري
أ.د. محمود إسماعيل عبد الرازق

الإخراج الفني وتصميم الغلاف : محمد أشرف عبد المقصود

الآراء الواردة بهذه المجلة تعبر عن وجهة نظر أصحابها
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الجمعية أو الناشر

المحتـويات

الصفحة

النَّقْدُ التَّارِيخِي عند الإغْرِيق
نادر فتحي محمد ٧-٤١

مَظَاهِرُ ثَـقَافَة المُرْتَدِّين في الجَـزِيرَةِ العَـرَبِيَّة
صالح بن أحمد الضويحي ٤٣-٨٢

الإنْجَازَاتُ الحَـضَارِيَّـةُ والعِلْمِيَّةُ في عَهْدِ عَضُدِ الدَّوْلَة البُـوَيْهِي
(٣٣٨-٣٧٢هـ/ ٩٤٩-٩٨٢م)
محمد طه بن صلاح بن صالح بكري ٨٣-١٢٩

قَافِلَةُ حَـجِّ عُلَـماءِ مِصْرَ في القَـرْنَيْنِ الثَّامِن والتَّاسِع للهِجْرَة
أيمن فؤاد سيّد ١٣١-١٤٩

آرَاءٌ جَدِيدَةٌ حَوْلَ الصِّراعِ المُـرَابِطِي ـ المُـوَحِّدِي من خِلالِ
«الرِّسَالَة المُنـظِّمَة» لابن تُومَرْت
عودة حسان عواد أبو شيخة ١٥١-١٧٧

السُّلْطَةُ والدِّينُ في العَصْرِ المَرِينِي بالمَغْرِبِ الأقْصَى
(٦٦٨-٨٦٩هـ/ ١٢٦٩-١٤٦٤م)
داليا عبد الهادي طلبة ١٧٩-٢٠٤

دَوْرُ الطَّائِف في الأحْدَاثِ السَّياسِيَّة في إقْلِيم الحِجَاز خِلال فَتْرَة الحُكْم
العُثْماني الثَّاني (١٢٥٦-١٣٣٤هـ/١٨٤٠-١٩١٦م)
عبد الرحمن بن سعد العرابي ٢٠٥-٢٤٨

موقف بريطانيا من الحملة الفرنسية على مصر عام (١٧٩٨-١٨٠١م)
كاترين وجيه ٢٤٩-٢٦٥

الصفحة

طاقَمُ مَكْتَب الأمير مُحَمَّد عَلِي تَـوْفِيق بمُتْحَف قَصْرِ المَنْيَل بالقَاهِرَة
«دِراسَةٌ فَنِّيَّةٌ مُقَارَنَة»
شادية الدسوقي عبد العزيز كشك ـ مي جلال عبد الباقي عبد السلام ٢٦٧ـ٣٠٢
جَرَائِمُ الحَـرْبِ الإسْرائِيلِيَّة وانْتِهاكاتُ حُقُوقِ الإنْسَان
مروة جلال محمد دغيدي ٣٠٣ـ٣٣١
النِّـزَاعُ الأنْجلُو ـ أمْرِيكِي مع بُلْغارْيَا بشَأْنِ تَـنْفِيذِ مُعَاهَدَةِ الصُّلْحِ المُـوَقَّعَة
في فِبْراير سَنَة ١٩٤٧م
شريف محمد أحمد عبد الجَوّاد ٣٣٣ـ٣٦٠

THE USES AND ABUSES OF HISTORY
ISMAIL SERAGELDIN 5-21

المجلة التاريخية المصرية ٥١ (٢٠١٨)، ٢٠٥ ـ ٢٤٨

دَوْرُ الطَّائِف في الأَحْدَاثِ السَّياسِيَّة في إقْلِيم الحِجَاز خِلال فَتْـرَة الحُـكْم العُثْماني الثَّاني

(١٢٥٦ـ١٣٣٤هـ/ ١٨٤٠ـ١٩١٦م)

عبد الرحمن بن سعد العرابي*

مستخلص

يتناول البحث دور مدينة الطائف في مجريات الأحداث التي شهدها إقليم الحجاز خلال فترة الحكم العثماني الثاني للإقليم والممتدة ما بين أعوام (١٢٥٦ـ ١٣٣٤هـ الموافق ١٨٤٠ـ ١٩١٦م) والتي كان لها تأثير كبير على الإقليم وأهله.

كان للطائف خلال تلك الفترة دورًا مؤثرًا يُقارب إلى حد كبير دور مكة المكرمة العاصمة الإدارية للإقليم، خاصة بعد أن أصبحت العاصمة الصيفية للحجاز إثر إصدار الدولة العثمانية لقانون الولاية الذي حول إقليم الحجاز إلى إقليم عثماني كامل يشرف على إدارته والي عثماني برتبة باشا إلى جانب أمير مكة من الأشراف، وكان كلاهما يقيمان خلال فترة الصيف في الطائف ويتخذونها مركزًا لهم.

من أهم الأحداث التي سيتطرق لها البحث الخلاف الذي وقع بين أمير مكة الشريف عبد المطلب بن غالب وبين والي الحجاز العثماني كامل باشا وذلك في عام ١٢٧٢هـ/ ١٨٥٦م، إضافة إلى حادثة نفي السلطان

* قسم التاريخ ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ جامعة الملك عبد العزيز.

عبد الحميد الثاني للوزير الأعظم مدحت باشا إلى مدينة الطائف وسجنه فيها ثم وفاته في السجن مما دفع معارضي عبد الحميد إلى اتهامه بتدبير مقتل الباشا .

كذلك يتناول البحث مشاركة الطائف في الثورة العربية الكبرى التي أطلقها الشريف الحسين بن علي من مكة المكرمة في نهاية العهد العثماني في عام ١٣٣٤هـ/ ١٩١٦م حين حاصر أهالي الطائف من الثوار للحامية العثمانية فيها ، واستسلام الوالي العثماني لهم لتواجده في الطائف آنذاك .

ويستعرض البحث اعتمادًا على المصادر والمراجع التاريخية الخاصة بتلك الفترة تأثيرات تلك الأحداث على مجريات التطورات السياسية التي شهدها الحجاز والتي انتهت باستقلاله كلية عن الدولة العثمانية .

Abstract

The study focused on the political developments which took place in the Hejaz region during the period of the second Ottoman Rule (1256-1334 A. H./ 1840-1916 A.D) and the role of Taif on them.

Taif was transferred into a summer capital of the Hejaz according to the Vilayet Law of 1864 A. D. Both the Shareef of Makkah and the Ottoman Vali resided in Taif during the summer.

The three major political incident which the study focused on are the conflict between Shareef Abdulmutalib B. Ghalib and the Ottoman Vali of the Hejaz Kamil Pasha in 1272 A. H. /1856 A. D. as well as the exile and imprisonment of the Grand Vazir Midhat Pasha by Sultan Abdulhameed II, in 1294 A. H. /1877 A. D. The third one the participation of Taif in the Arab Revolt of 1916 A. D. where the Ottoman garrison was besieged and the Ottoman Vali was surrounded to the revolutionaries at the end of Ottoman rule in 1334 A. D. /1916 A. D.

تمهـــيد

في عام ١٨٦٤م/١٢٨٠هـ صدرت إرادة عثمانية سلطانية باعتماد قانون الولاية (Vilalet Law) كنتيجة لجهود كل من الصدر الأعظم فؤاد باشا والوزير مدحت باشا وذلك لتنظيم الولايات العثمانية بما يتوافق مع التوجه العام السائد أنذاك في الدولة العثمانية لعهد التنظيمات الخيرية. وبقانون الولاية ألغي النظام الإداري القديم الذي ينظم أقاليم الدولة والمعروف باسم نظام الإيالة.

حسب قانون الولاية كانت كل ولاية تقسم إلى عدة صناجق أو ألوية وكل صنجق أو لواء إلى أقضية والأقضية إلى قرى. ثم بعد ذلك وفي عامي ١٨٦٧م/ ١٢٨٣هـ - ١٨٧١م/١٢٨٧هـ تم إجراء تعديلات على القانون أضيفت إلى وحدات الولاية وحدة إدارية صغرى تسمى ناحية[١].

طبقت الدولة العثمانية نظام الولاية لعام ١٨٦٤م على إقليم الحجاز تطبيقًا كاملًا، بحيث تحول الحجاز إلى ولاية عثمانية مثله مثل بقية الولايات العثمانية الأخرى نتيجة لعودة السيطرة العثمانية على الإقليم بعد خروج قوات محمد علي باشا منه في عام ١٨٤٠م/١٢٥٥هـ. وحسب القانون قسم الإقليم إلى ..... وأ ..... ونواح بحيث أصبحت مكة المكرمة مركز الولاية الإداري والمدينة المنورة وجدة صناجن ومدن ينبع والليث والوجه والعقبة اقضية أما مدن الطائف ورابغ وأم لحج وخيبر والعلا فأصبحت نواح[٢].

كانت الطائف العاصمة الصيفية للحجاز حيث يلجأ لها سكان مكة المكرمة في فصل الصيف هربًا من حر الصيف وكان العثمانيون وأمراء مكة المكرمة من

---

(1) SALEH MUHAMMAD AL-AMR, *The Hijaz Under Ottoman Rule 1869-1914,* Riyad Univ. Press, Riyad, March 1978, pp.55-66.

(2) *Ibid*, pp.69, 71.

الأشراف يتقاسمون السلطة المحلية والقضاء والدخل الحكومي في الطائف[١].

وبحسب سالنامة ولاية الحجاز العثمانية لسنة ١٣٠٦هـ والتي تصدرها الولاية كتقويم سنوي رسمي للحجاز، فإن ناحية الطائف كان لها مدير هو تيمور أفندي ونائبًا هو محمد حسن أفندي وتضم إدارتها كاتب، ومأمور بريد، وتلغراف، وكان للناحية مجلس يتكون من خمسة أعضاء بما فيهم المحتسب وهم على النحو التالي: سليمان بن عوض أفندي، ويسلم بصفر أفندي، وحسن أفندي، ومحمد منة أفندي، والمحتسب شحاتة آغا. وكان عدد سكان الطائف الذكور والإناث (١٥٠٠) نفس وبها قشلة واحدة (ثكنة عسكرية)[٢].

ووصف الرحالة النمساوي جون لويس بوركهارت الطائف عند زيارته لها في شهر رمضان من عام ١٢٣٠هـ/ أغسطس ١٨١٤م، بأنها «عبارة عن مربع غير متناسق محيطه لا يزيد عن مسافة تستغرق خمسًا وثلاثين دقيقة من السير السريع ويحيط به سور وخندق وللسور ثلاثة أبواب ويحميه عدد من الأبراج ولكنه أقل متانة من أسوار جدة والمدينة وينبع، ويبلغ سمكه في أماكن عدة أكثر من ثمان عشر بوصة. وفي غرب الطائف تقع القلعة على مكان صخري مرتفع وتشكل جزءًا من السور وقد بناها الشريف غالب (بن مساعد)»[٣].

ويصف محمد صادق باشا أمين «صرة» المحمل المصري مدينة الطائف عند زيارته لها في شهر رمضان من عام ١٣٠٠هـ/ مايو ١٨٨٣م بقوله: «وبلدة الطائف محاطة بسور من لبن داخله (٤٠٠) منزل و (٢٠٠) دكان وستة جوامع

---

(1) WILLIAM OCHSENWALD, Religion, *Society and The State in Arabia, The Hijaz Under Ottoman Control,* 1840-1908, Ohio State Univ. Press, Columbus 1984, pp.23-29.

(٢) حجاز ولايتي سالنامه سي، سنة ١٣٠٦هـ، دفعة ٤، مكة المكرمة، ٢١٩.

(٣) جون لويس بوركهارت: رحلات في شبه جزيرة العرب، ترجمة د. عبد العزيز الهلابي، ود. عبد الرحمن الشيخ، بيروت ـ مؤسسة الرسالة ١٩٩٢م، ٨٢.

وسبعة مساجد ودائرة للحكومة ومنزل للمدير (مدير الناحية) وقشلة للعساكرو قلعة لحبس أهل الجارئم حبس بها مدحت باشا ورفاقه وعدد أهاليها من ذكور وإناث (أي الطائف) (٢٠٠٠) نفس»[١].

والطائف التي نتحدث عنها هنا في بحثنا هذا وفي فترة الحكم العثماني الثاني لإقليم الحجاز إنما هي المدينة التي تقع داخل السور والتي كانت تتكون من ثلاثة حارات فقط هي حارة فوق وتقع خلف القلعة العثمانية التي أشار لها بوركهارت ومحمد صادق باشا والتي عرفت بين أهالي الطائف بقلعة باب الريع. ثم حارة أسفل وتقع خلف باب الحزم أحد أبواب الطائف الثلاثة. ثم حارة السليمانية وهي على مقربة من مسجد ابن العباس. وكانت أوسع تلك الحارات وأكثرها سكانًا حارة أسفل ثم حارة فوق ثم حارة السليمانية وقد تضررت تلك الحارات أيام الثورة العربية الكبرى ضد العثمانيين في عام ١٣٣٤هـ/١٩١٦م والتي سوف يأتي الحديث عنها في آخر هذا البحث. وكانت الطائف تقع داخل السور يحدها شمالًا منطقة شبرا و العقيق وجنوبًا منطقتي شهار وحوايا، وشرقًا وادي وج وجبل البازم وغربًا القشلة وضاحيتي قروة والسلامة، وأبواب السور الثالث هو باب الحزم وهو الباب الشمالي والموصل إلى شبرا وباب الريع وهو الباب الغربي الموصل إلى السلامة والمثناه وباب ابن العباس بجوار مسجد ابن العباس ويقع على الجهة الجنوبية الشرقية من الطائف[٢].

---

[١] محمد صادق باشا: الرحلات الحجازية، إعداد وتحرير محمد همام فكري، بيروت ـ بدر للنشر ١٩٩٩م، ٣٤٧ـ٣٤٨.

[٢] عيسى علوي القصير: الطائف القديم داخل السور في القرن الرابع عشر الهجري، الطائف ١٤٣٤هـ، ٦٦ـ٦٨.

الخلاف بين أمير مكة المكرمة ووالي الحجاز في عام ١٢٧٢هـ/١٨٥٦م

شاركت الطائف بقوة في الخلاف الذي ساد بين أمير مكة المكرمة الشريف عبد المطلب بن غالب ووالي الحجاز العثماني كامل باشا والذي حدث في عام ١٢٧٢هـ/١٨٥٦م.

وكان أصل الخلاف بين الاثنين معارضة أمير مكة المكرمة للإدارة الثنائية التي أحدثتها الدولة العثمانية في إقليم الحجاز خلال فترة ما عرف بفترة الحكم العثماني الثاني بعد إجلاء قوات محمد علي باشا عن الحجاز في عام ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م. وتمثلت تلك الثنائية في تداخل الصلاحيات ما بين أمير مكة المكرمة والوالي العثماني للحجاز[١]، وهو ما خلق منافسة بين الاثنين وكثيرًا ما كانت تتحول إلى إشتباكات مسلحة يستخدم فيها كل طرف ما لديه من قوة ورجال .وهو ما حدث فعليًا مع الشريف عبد المطلب ذاته في صراعه مع سلطات كامل باشا والي الحجاز ومن قبله الواليان أقة باشا وعزت باشا اللذين عزلتهما الحكومة العثمانية استرضاءًا للشريف[٢].

وحسب صلاحيات كل من الأمير والوالي، فإن الدولة العثمانية جعلت الإشراف على الجيش وجمارك جدة من صلاحيات الوالي، بينما كانت إدارة المدن من اختصاص الأمير، وحتى عندما أعادت الدولة العثمانية النظر في الاختصاصات والصلاحيات مرة أخرى وذلك في عام ١٢٦٠هـ/١٨٤٤م، تقاسم الأمير والوالي مسؤولية أمن الطرق وشؤون القبائل وإدارة المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة وكأن الدولة وضعت بذلك أسسًا خصبة للمنافسة

---

(1) OCHSENWALD, *op.cit.*, p.131.

(٢) عبد الله محمد الغازي: إفادة الأنام، تحقيق د. عبد الملك بن دهيش، مكة المكرمة، مكتبة الأسدي ١٤٣٠هـ، ٤: ٨٩-٩٠.

وسوء الفهم والاضطراب بعدم التحديد الواضح لمهام كل وظيفة من الاثنين[١] .

وكما تروي المصادر المكية بداية الخلاف بين الشريف عبد المطلب وكامل باشا ، بأن العلاقة بينهما كانت ودية عند بداية وصول كامل باشا إلى الحجاز ، وذلك في عام ١٢٧٠هـ/١٨٥٤م لتولي مهام الوالي حيث قابله الشريف عبد المطلب ورحب واحتفل به وأصبحت بينهما محبة وألفة وهي استمرار لما كانا عليه حين كان الشريف عبد المطلب يقيم في استانبول قبل توليه إمارة مكة المكرمة[٢] . غير أن تلك العلاقة لم تدم طويلًا وذلك حينما نمى إلى علم الشريف عبد المطلب بأن كامل باشا ينوي القبض عليه عندما دعاه إلى حضور استعراض للعساكر النظامية العثمانية المقيمة في مكة المكرمة في منطقة الأبطح فغادر عبد المطلب مكان الاستعراض ، وكأنه يود قضاء الحاجة غير أنه لم يعد وتوجه إلى مدينة الطائف . وزادت العداوة بين الاثنين أكثر مما كانت مع كل من أقة باشا وعزت باشا[٣] .

كان الشريف عبد المطلب يتهم السيد إسحاق بن عقيل شيخ السادة في مكة المكرمة بصنع وتأجيج العداوة بينه وبين ولاة الحجاز العثمانيين ، لأنه أي السيد إسحاق من المؤيدين والمحبين للشريف محمد بن عون أمير مكة المكرمة السابق ومنافس عبد المطلب على الإمارة[٤] .

كما أن الشريف عبد المطلب كان يرى في قرب التواصل بين السيد إسحاق والولاة العثمانيين ومحبتهم له تهديدًا له ولصلاحياته ، ولهذا عزم على وضع حد

---

(1) OCHSENWALD, *op.cit.*, pp.33-34.

(٢) أحمد زيني دحلان : خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام ، القاهرة ، المطبعة الخيرية ١٣٠٥هـ ، ٣١٦، الغازي : مرجع سابق ، ٤: ٩١.

(٣) دحلان : نفس المرجع والصفحة ؛ الغازي : نفس المرجع والصفحة .

(٤) دحلان : مرجع سابق ، ٣١٧، الغازي ، مرجع سابق ، ٤: ٩١.

لذلك فأمر وهو لا يزال في الطائف عددًا من جنوده من فرقة البياشة بالنزول إلى مكة المكرمة والقبض على السيد إسحاق وإحضاره إلى الطائف وهو ما تم فعليًا حينما قبض الجنود على السيد إسحاق بعد مباغتتهم له في منزله واقتادوه خفية إلى الطائف عن طريق الحسينية ، حتى لا يتمكن كامل باشا من حمايته أو منعهم من أخذه سجينًا[١] إلى الطائف . وعندما وصلوا إلى الطائف سعوا إلى إهانته بأن أركبوه حمارًا أسودًا قصيرًا وكان السيد إسحاق طويلًا وذا هيبة ، فطافوا به أسواق الطائف ثم حبسوه في القلعة الموجودة بمحلة المثناه[٢] والتي كانت تشرف على دار الشريف عبد المطلب وبعد ليلتين أخرجوا السيد إسحاق من القلعة ميتًا وقيل أنهم قتلوه خنقًا[٣] .

ولما بلغ الخبر كامل باشا أرسل مدير الحرم المكي رمزي أفندي إلى العاصمة استانبول طالبًا خلع الشريف عبد المطلب من أمارة مكة المكرمة[٤] ، وكان ذلك في نهاية عام ١٢٧١هـ/١٨٥٥م .

يبدو أن لجوء الشريف عبد المطلب إلى الطائف منذ بداية ظهور بوادر خلاف بينه وبين كامل باشا كان بسبب اعتباره أنه سيكون في مأمين أكثر كون الطائف حصينة بموقعها الجبلي وصعوبة الوصول إليها فيما لو لجأ كامل باشا إلى قوات عسكرية كبيرة ، إضافة إلى إمكانية تجنيد قبائل الطائف وضواحيها إلى جانبه

---

(١) قيل أن سبب سجن السيد إسحاق هو مطالبة الشريف له بمبالغ مالية ، انظر وثيقة B. O. A, Ird. Dah، أرشيف رئاسة الوزراء العثماني ، إدارة ، داخلية ، من كتاب «سنان معروف أغلو» ، نجد والحجاز في الوثائق العثمانية ، بيروت ، دار الساقي ٢٠٠٢م ، ٢١- ٢٢.

(٢) المثناه كانت من ضواحي الطائف وهي اليوم واحدة من أحيائها الكبري ، معجم معالم الحجاز ، ٨: ٢٢.

(٣) دحلان : مرجع سابق ، ٣١٧، الغازي ، مرجع سابق ، ٤: ٩٢-٩٣.

(4) OCHSENWALD, *Ibid*, p.137.

خاصة وأن القبائل كانوا دائمًا ما يشاركون في دعم إحدى القوى في الإقليم ضد أخرى حيث تمتلئ بطون المصادر الملكية مثل دحلان، والغازي، والسباعي بتفصيل ذلك.

هذا الحدس من الشريف عبد المطلب اتضح عندما وجهت السلطة العثمانية المركزية في استانبول الفريق رشيد باشا[١] عضو المجلس الحربي العثماني لتحري الأوضاع السياسية في الحجاز تحت غطاء مراجعة الأوضاع العسكرية[٢].

وقد شاع بين أهالي الحجاز بعد وصول رشيد باشا إلى جدة في شهر صفر من عام ١٢٧٢هـ/ أكتوبر ١٨٥٥م، أن قدومه يهدف إلى القبض على الشريف عبد المطلب وإقامة الشريف عبدالله بن ناصر من آل عون «قائم مقام» نيابة عن الشريف محمد بن عون إلى حين وصول الأخير إلى مكة المكرمة لتولي إمارتها[٣]. لذا لجأ الشريف عبد المطلب إلى قبائل الطائف فجمعهم وأعلمهم بأنه يود حماية مكة المكرمة وأهلها من أي مكروه أو ضرر يصيبهم من كامل باشا وأعوانه[٤].

توجه عبد المطلب بقبائل الطائف إلى مكة المكرمة، وكانت الأخبار قد وصلت إلى كامل باشا فأقام الشريف عبدالله بن ناصر قائم مقام نيابة عن أمير مكة المكرمة المرتقب، الشريف محمد بن عون، وأرسل للشريف عبد المطلب يخبره بعزله عن الإمارة وأن الدولة العثمانية عينت الشريف محمد بن عون أميرًا. هذا في الوقت

---

(١) تسميه المصادر المكية راشد باشا.

(2) OCHSENWALD, *Ibid*, p.138.

(٣) دحلان: مرجع سابق، ٣١٧، الغازي، مرجع سابق، ٤: ٩٣.

(٤) دحلان: المرجع نفسه، ٣١٨، الغازي: المرجع نفسه، ٤: ٩٤.

الذي أمر فيه كامل باشا حامية مكة المكرمة من العساكر العثمانية أخذ استعداداتها تحت قيادة قائدها القمندان[١] أويس باشا[٢].

رفض الشريف عبد المطلب مضمون رسالة كامل باشا مؤكدًا أنه لا يزال الأمير وكان قد وصل إلى داره التي بمكة المكرمة في حي القرارة[٣] فعقد اجتماعًا حضره عدد من الأشراف والعلماء والسادة وأعيان مكة المكرمة وقال لهم : « أني أنما جئت بالقبائل لحمايتكم ونصرة الدين» ، فعقدوا العقود فيما بينهم على النصرة وصار أهل حارات مكة المكرمة حاملين السلاح ويقيمون دوريات أمنية (يعسون) خلال فترات الليل في طرقات مكة المكرمة[٤] احترازًا من وصول قوات مؤيدة لكامل باشا .

لم يقبل كامل باشا بما فعله الشريف عبد المطلب فقد كان مصرًا على تنحيته من الإمارة بأي ثمن خاصة وأنه أي كامل باشا وبصفته واليًا على الحجاز وقائدًا عامًا للحاميات العثمانية في الإقليم ولديه قوة عسكرية لا يستهان بها ، حيث كانت حامية جدة لوحدها تقدر بـ (٢٠٠٠) جندي وعدد (٧٠٠) جندي آخر في حامية مكة المكرمة[٥] فسير من جدة قوة كبيرة الي مكة المكرمة لإخراج عبد المطلب منها الذي لم تشفع له جمعه لما يقارب الـ (٢٠٠٠) رجلًا من قبائل الطائف ، وتأييد قبائل هذيل وعتيبة فانهزم أمام القوة العثمانية في ثلاث مرات

---

(١) كلمة تركية تعني رتبة عسكرية «مقدم» المؤلف .

(٢) دحلان : المرجع السابق ، ٣١٨، الغازي : المرجع السابق ، ٤: ٩٤.

(٣) كان أحد أحياء مكة المكرمة الملاصقة للحرم و يقع تحديدًا في الجهة الشمالية منه ، البلادي : مرجع سابق ، ٧: ١٠٥، وقد أزيل الحي كاملًا لصالح توسعة خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز الحالية (الباحث) .

(٤) دحلان : المرجع السابق ، ٣١٨، الغازي : المرجع السابق ، ٤: ٩٤.

(5) OCHSENWALD, *Ibid.*, pp.138-139.

متتالية،وتكبدت قواته خسائر بشرية كبيرة وقد ساهم في نصر كامل باشا وقواته انضمام الشريف عبدالله بن ناصر وعدد كبير من الأشراف إلى القوة المعارضة لعبد المطلب حيث أسهم الشريف عبدالله في ابتعاد بعض مناصري عبد المطلب عنه حينما أغراهم بالمال من كساوى وعطايا دراهم[١] .

لم يجد الشريف عبد المطلب بدًا من الإقرار بهزيمته فخرج من مكة المكرمة ولجأ إلى الطائف للمرة الثانية ، وهو يظهر عزمه على التوجه منها إلى العاصمة العثمانية استانبول ، وكان ذلك في نهاية شهر ربيع الأول من عام ١٢٧٢هـ/ مارس١٨٥٦م[٢] ، وهو ما مكنّ القوة العثمانية بقيادة رشيد باشا من الدخول إلى مكة المكرمة وبمعيتها الشريف عبدالله بن ناصر يقود قوة سلاح المدفعية وفرقة المشاة وحرس الإمارة من فرقة البياشة ورجال قبيلة هذيل وتمت قراءة الفرمان السلطاني الخاص بتعيين الشريف محمد بن عون أميرًا لمكة المكرمة والشريف عبدالله بن ناصر قائمقام الأمير لحين وصوله إلى مكة المكرمة[٣] .

بعد وصول عبد المطلب إلى الطائف وهو كما تذكر بعض المصادر عازم على التوجه إلى استانبول والقبول بخلعه من الإمارة[٤] حسَن له بعض أهالي الطائف جمع القبائل من الطائف ومن ضواحيها واستعادة حكمه مرة أخرى فراقت له الفكرة وراسل قبائل بني سعد وغامد وزهران وثقيف وسفيان وأغراهم بالمال فتمكن بهم من الاستيلاء على قلعة الطائف العسكرية التي كانت تقيم بها حامية عثمانية وأخرج الحامية منها وسمح لهم دون أذي التوجه إلى مكة المكرمة[٥] .

---

(١) دحلان : مرجع سابق ، ٣١٨.

(٢) المرجع نفسه ، ٣١٨ـ ٣١٩.

(3) OCHSENWALD, *Ibid.*, p.139.

(٤) دحلان : المرجع السابق ، ٣١٩، الغازي ، مرجع سابق ، ٤: ٩٦.

(٥) دحلان : المرجع نفسه ، ٣١٩، الغازي : مرجع سابق ، ٤: ٩٧.

كان انضمام قبائل الطائف إلى جانب عبد المطلب قد أعاد له الأمل في إمكانية عودته إلى حكم الإمارة خاصة وأن عدد تلك القبائل كان كبيرًا وإن لم تذكر المصادر عددها، فأمر عليهم الشريف حسين بن منصور الشنبري من أشراف الشنابرة في ضواحي الطائف وأرسلهم إلى مكة المكرمة لإخراج القوة العثمانية منها وخلع نيابة الشريف عبدالله بن ناصر. لكن تلك القوة رغم كبر حجمها إلا أنها انهزمت أكثر من مرة عند عرفات بعد مقابلة القوة العثمانية وبمساندة الشريف عبد الله بن ناصر والقبائل الحجازية الأخري التي كانت إلى جانب خصوم عبد المطلب. تمكنت قوات كامل باشا والشريف عبدالله من هزيمة قوة الطائف حتي أن الأخير تكبدت خسائر كبري في الأشخاص فقد قتل منهم الكثير وعرضت رؤوس القتلى في مكة المكرمة للاعتبار وكان ذلك في اليوم الثامن من شعبان من عام ١٢٧٢هـ/ ٨ أغسطس ١٨٥٦م وقد تزامن ذلك مع وصول أمير مكة المكرمة الجديد الشريف محمد بن عون إلى ميناء جدة قادمًا من استانبول[١].

لم ينتهي الأمر عند ذلك فالشريف عبد المطلب لا زال متحصنًا في الطائف ومعه قبائلها العديدة تناصره فرأى الأمير الجديد الشريف محمد بن عون أنه لا بد من مهاجمة الطائف وكسر قوتها كونها القاعدة التي يلجأ إليها الشريف عبد المطلب وإنهاء مقاومتها بقبائلها و بقلعتها وإخراج عبد المطلب أو القبض عليه، فجمع الشريف محمد قواته ومعها الحامية العثمانية فلما قرب من الطائف أرسل إلى عبد المطلب يطلب منه التسليم بالأمر الواقع والقبول بخلعه من الإمارة مقابل إعطائه الأمان[٢]. لم يغر عرض محمد بن عون الشريف عبد المطلب وظن أن

---

(١) دحلان: المرجع السابق، ٣١٩، الغازي: المرجع السابق، ٤: ٩٨-٩٩.

(٢) المرجع نفسه، ٣٢٠.

وجوده بالطائف حصانة له وأن مناصرة قبائلها له قوة يمكنه بها رد اعتباره وهزيمة خصومه فرفض العرض وتحصن بالطائف واستعد للقتال وأمر أهلها بحمل السلاح وكانت معه قبائل هذيل وثقيف وسفيان لكن ذلك لم يشفع له حينما لجأ خصمه الشريف محمد إلىإ ستمالة تلك القبائل بالمال من كساوى ودراهم وأجواخ وشيلان ووعدهم بالأمان فلجأت بعضها إليه وتفرقت عن معسكر عبد المطلب[1] .

وصلت القوة التي يقودها الشريف محمد بن عون إلى مشارف الطائف وإلى منطقة العقيق أحد أحياء مدينة الطائف في أيامنا هذه في شمالها الشرقي وفرضت حصارها على الطائف ولم يكن قد تبقى إلى جانب الشريف عبد المطلب سوى الحاضرة من أهل الطائف وعدد قليل من الأشراف بقيادة الشريف حسين بن منصور الشنبري فلما اشتد الحصار عليهم وبدأت معاناة أهالي الطائف لجأ عدد منهم إلى الشريف محمد بن عون طالبين الأمان لهم ولمدينتهم مقابل مساعدته بفتح أبواب سور الطائف وهو ما حدث فعليًا فقد أمّنهم الشريف محمد وقاموا هم بفتح باب السور المعروف باسم باب الحزم القريب من حي العقيق حيث كانت قوة الشريف محمد بن عون تعسكر[2] .

دخل الشريف محمد بن عون إلى الطائف وحاصر الشريف عبد المطلب في داره إلى أن تم تسليمه والقبض عليه ، وذلك في ١٧ رمضان من عام ١٢٧٢هـ/ ٢٢ مايو ١٨٥٦م بعدها تم أنزاله إلى جدة ومنها أرسل مخفورًا إلى استانبول حيث تم العفو عنه من قبل الحكومة العثمانية . وبذلك تم النصر للسلطة العثمانية . «وكان سقوط الطائف كما يذكر المؤرخ الأمريكي المعاصر وليم أوكسنولد ، و إلقاءالقبض

---

(١) المرجع السابق ، ٣٢٠، الغازي : المرجع السابق ، ٤: ٩٨- ٩٩.

(٢) دحلان : المرجع السابق ، ٣٢٠.

على عبد المطلب في ٢٢مايو بعد سبعة أشهر تمردًا ضد أوامر الدولة العثمانية وليس ضد شرعيتها[١]».

وبسقوط الطائف ومقاومتها كما تذكر المصادر المكية فإن الناس اطمأنوا و زالت الفتنة و أصبحت الطرق آمنة[٢].

نفي وسجن ووفاة مدحت باشا (١٢٩٨ـ١٣٠١هـ/ ١٨٨١ـ١٨٨٤م)

شهدت مدينة الطائف في نهاية القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي واحدًا من أهم الأحداث الداخلية في الدولة العثمانية وهو سجن أحمد شفيق مدحت باشا (١٢٣٨ـ١٣٠١هـ/١٨٢٢ـ١٨٨٤م) الصدر الأعظم السابق وأبو الدستور العثماني وأحد أهم رجالات الدولة العثمانية أنذاك ، فهو كما يصفه مؤرخ الدولة العثمانية المعاصر الأشهر الأمريكي البروفيسور ستانفورد شو بأنه يشبه مصطفى كمال أتاتورك مؤسس الجمهورية التركية وأحد أعظم رجالات عهد التنظيمات العثمانية وصاحب الرؤية والجرأة والذي كانت لديه الحماسة العالية لإحداث إصلاحات كبرى سواءً في أنظمة الأقاليم العثمانية أو داخل الحكومة المركزية في استانبول[٣].

كان مدحت باشا الشخصية الأكثر تأثيرًا في عهد التنظيمات التي ساهمت بشكل كبير في إصدار الدستور «المشروطية» العثماني في عام ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م) كما كان له دور كبير في خلع السلطان عبد العزيز (١٢٧٧ـ١٢٩٣/ ١٨٦١ـ ١٨٧٦م) والسلطان مراد الخامس (١٢٥٣هـ ٣ أشهر/ ١٨٧٦م)

---

(1) OCHSENWALD, *Ibid.*, p.139.

(٢) دحلان : المرجع السابق ، ٣٢٠، الغازي : المرجع السابق ، ٤: ٩٩.

(3) STANFORD SHAW, EZEL SHAW, *History of The Ottoman Empire and Modern Turkey,* Cambridge Univ. Press 1977, Vo.2 pp.66, 181, 216-217.

وتنصيب السلطان عبد الحميد الثاني سلطانًا[١] .

في بداية تولي عبد الحميد الثاني مقاليد الحكم كان يبدي تقديره لمدحت باشا لأنه كما يقول السلطان نفسه في مذكراته : «اكتسب تقديرنا جميعًا بحسن إدارته وقد عينته في منصب الصدارة العظمى لأنه كان محل ثقة العموم وقد كانت الأمة تزعم أنها قد وصلت إلى رشدها»[٢] . غير أن ذلك تغير فجأة وتحول مدحت باشا إلى عدو رئيس للسلطان ، لأن الأخير ظن أن مدحت باشا يسعى إلى الإطاحة به وإعادة السلطان مراد إلى السلطة وأنه أي مدحت باشا يسعى إلى فصل السلطة الدينية عن السلطة الدنيوية (الخلافة) من السلطنة العثمانية بحيث لا يكون السلطان خليفة كل المسلمين في المعمورة بل سلطانًا فقط على الأمة العثمانية[٣] . كما أن السلطان عبد الحميد ذكر صراحة في مذكراته : «أنه وجد مدحت باشا ينصب من نفسه ومنذ اليوم الأول آمرًا عليّ ووصيًّا وكان في معاملته معي بعيدًا عن المشروطية وأقرب إلى الاستبداد»[٤] . وفي موقع آخر من مذكراته يرى السلطان عبد الحميد الثاني أن مدحت باشا رغم أنه كان واليًا جيدًا إلا أن إدارته السياسية كانت خاطئة وأنه كان كثير الاختلاط بالذين كان السلطان نفسه ووزرائه يرتابون منهم ، إضافة إلى «أن الإشاعات والأراجيف والتي كانت تشكك في السلطان الشرقي والأحكام الدستورية الشرقية تخرج من فم الصدر الأعظم مدحت باشا ومن قصره[٥]» .

---

(١) محمد فريد بك المحامي : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق د. إحسان حقي ، بيروت ـ دار النفائس ١٩٨١م ، ٥٧٥ـ ٥٧٧، ٥٨٤ـ ٥٨٦.

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد ، تقديم وترجمة د .محمد حرب ، دمشق ـ دار القلم ١٩٩١م ، ٧٠ـ ٧٣.

(٣) المحامي : المرجع السابق ، ٥٩٣.

(٤) حرب : المرجع السابق ، ٧٦.

(٥) المرجع نفسه ، ٧٥.

لهذه الأسباب مجتمعة قرر السلطان عبد الحميد الثاني عزل مدحت باشا من الصدارة العظمى ونفيه إلى خارج حدود الدولةالعثمانية وذلك في ٢١ محرم ١٢٩٤هـ/ ٥ فبراير ١٨٧٧م استنادًا إلى المادة (١١٣) من القانون العثماني الأساسي الذي يمنح السلطان حق نفي من يرى أنه ثبت عليهم أنهم أخلوا بالأمن[١] .

وقد ذكر مدحت باشا ذاته في مذكراته أن أحد أسباب عزله من الوزارة ونفيه إلى أوروبا هو : «أن أحد الجواسيس سمع ضابطًا يقول لرفيقه في إحدى المقاهي أني سأكون رئيس جمهورية و لهذا قدم عمر فوزي باشا ناظر الضابطة جورنالين للسلطان وقع عليهما بخاتمه لإبعادي خارج البلاد »[٢] .

لم يطل منفى مدحت باشا في أوربا بل عفا عنه السلطان عبد الحميد بعد أقل من عام وخصص له مبلغًا ماليًا شهريًا قدره (٢٠٠) ليرة وأمر أن تكون إقامته في جزيرة كريت في البحر الأبيض المتوسط وكان ذلك في غرة شهر شوال من عام ١٢٩٥م . وبعد إقامة لم تطل أكثر من شهرين في الجزيرة أوكل السلطان لمدحت ولاية سوريا . وبعد سنتين من ولايته في سوريا نقله السلطان إلى ولاية أزمير واليا لها[٣] .

لم تستمر العلاقة الودية بين السلطان عبد الحميد الثاني ومدحت باشا كثيرًا، فلقد كان السلطان يرى في بقاء مدحت في مناصب رفيعة في الدولة تهديدًا له ولحكمه وفي المقابل لم يكن مدحت يطمئن إلى سكوت السلطان عنه وإبقائه في مناصب رسمية رفيعة خاصة وأن محاولات مدحت باشا لإعادة العمل بالدستور

---

(١) المحامي : المرجع السابق، ٥٩٣.

(٢) يوسف كمال بك، ود . صديق الدملوحي : مدحت باشا ، حياته ، مذكراته ، محاكمته ، بيروت ـ الدار العربية للموسوعات ٢٠٠٢م، ٤٢.

(٣) المرجع نفسه، ٤٨ـ٤٩، ٥٧.

العثماني الذي سبق للسلطان أن عطله ، لم تهدأ فأدى كل ذلك إلى قطع العلاقة كلية بين الاثنين والقبض على مدحت باشا ومحاكمته[١] .

وقد أشار السلطان عبد الحميد في مذكراته إلى الأسباب التي دعته إلى عزل ومحاكمة مدحت باشا بقوله : «مدحت باشا كان واليًا جيدًا ، ولكن إدارته السياسية كانت خطأ ، كان كثير الاختلاط بهؤلاء الذين كان السلطان والوزراء يرتابون منهم ، وكانت الإشاعات والأراجيف التي تشكك ليس في سلطان شرقي فحسب بل وفي أكثر حكام الشرق دستورية تخرج من فم الصدر الأعظم مدحت باشا ومن قصره» . ثم يشير إلى جانب آخر في تخوفه من مدحت باشا بقوله : «باشتراك مدحت في عملية خلع عمي السلطان عبد العزيز انتقل بذلك من مصاف رجال الحكم إلى عداد الثوار ولا يستطيع أي حاكم أن يثق في رجل اشترك في عملية خلع حاكم حتى ولو كان الحاكم الجديد خصم للحاكم القديم»[٢] .

ولإيجاد المبررات اللازمة لإبعاد مدحت باشا فقد الصقت به تهمة المشاركة في مقتل السلطان عبد العزيز والتي قام بها مصطفى آغا واثنين من أعوانه بإيعاز من الداماد محمود جلال الدين باشا ونوري باشا بعلم وتدبير من مدحت باشا نفسه[٣] .

تعددت آراء المؤرخين حول حقيقة الأسباب التي دفعت السلطان عبد الحميد واتهامه لمدحت باشا بقتل السلطان عبد العزيز ومن ثم القبض على مدحت باشا ومحاكمته فمنهم من أرجع ذلك إلى تخوف السلطان من مدحت باشا وآخرون

---

(1) SHAW, *Ibid*, vol.2, p.216.

(٢) حرب : المرجع السابق ، ٧٥ـ ٧٦.

(٣) أورخان محمد علي : السلطان عبد الحميد الثاني ، حياته وأحداث عهده ، بغداد ـ مكتبة دار الأنبار ١٩٨٧م ، ١٨٢ـ ١٨٣.

يرون أنه كان ضروريًا التخلص من مدحت لأنه أصبح بلوى مسلطة على رأس الدولة وأنه كان ما يزال يهدد الدولة بواسطة انكلترا»[١] .

كان السلطان عبد الحميد مقتنعًا بأن السلطان عبد العزيز لم يمت منتحرًا كما يقال بل مات مقتولًا وأن تقرير الطبيب الشرعي لم يكن واضحًا بل به من الثغرات ما يمكن التشكيك في نتائجه فلن يستطيع كما يقول السلطان عبد الحميد «المنتحر قطع شرايين ذراعيه الاثنين وقد لفت ذلك انتباه الأطباء في ذلك الوقت»[٢] .

يروي مدحت باشا ليلة القبض عليه بقوله : «بينما كنت مشغولًا في أعمالي الرسمية أخبرت بأن ضابطًا برتبة رئيس أول واسمه حسن بك من حرس السلطان عبد الحميد قد وصل إلى أزمير وأنه مكلف من السلطان بالقبض عليَ وأن لديه فوجًا من العساكر النظامية وفوجين من عساكر الرديف وقد حاصروا منزلي ليلًا فتسللت من باب سري واتجهت إلى القنصلية الفرنسية طالبًا الحماية»[٣] . وكان ذلك في ليلة ١٦ جمادى الآخرة سنة ١٣٩٨هـ (١٦ مارس ١٨٨١م) .

لم يطل مقام مدحت باشا في القنصلية الفرنسية فقد أبلغت وزارة الخارجية الفرنسية قنصلها في أزمير بأنه ليس هناك حاجة إلى امتناع تسليم مدحت باشا إلى حكومته طالما أنه،بحسب قولها أنه أي مدحت لا يمانع ذلك، وبعد ليلتين فقط أمضاهما مدحت باشا في القنصلية الفرنسية حضر اللواء حلمي باشا وتسلمه وقاده مخفورًا إلى القشلة (الثكنة) العسكرية ومن هناك نقله وزير العدل جودت باشا إلى استانبول عن طريق البحر حيث وصلها ليلة ٢٢ مارس[٤] .

---

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، استانبول ـ منشورات مؤسسة فيصل للتمويل ١٩٩٠م ، ٢: ١٢٧.

(٢) حرب : المرجع السابق ، ٨٨.

(٣) حتاته : المرجع السابق ، ٨٥ـ٨٦، محمد علي : المرجع السابق ، ١٨١.

(٤) حتاته : المرجع السابق ، ٨٨، محمد علي : المرجع السابق ، ١٨٢.

بعد وصول مدحت باشا إلى استانبول في ليلة ٢٣/٢٢ مارس أمر السلطان عبد الحميد الثاني ببدء التحقيق معه بحجة تسببه في مقتل السلطان عبد العزيز ، وذلك بعد أكثر من خمس سنوات من وفاة السلطان عبد العزيز فتشكلت هيئة تحقيق برئاسة أعدى أعداء مدحت باشا سرور أفندي وعضوية كل من المدعي العام العثماني لطيف بك ومصاحب السلطان عبد الحميد راغب بك وثلاثة محققين من وزارة العدلية استمرت في عملها اثنى عشر يومًا وصفت مدحت باشا بأنه كان يرمي إلى إلصاق جريمة مقتل السلطان عبد العزيز بالسلطان مراد الخامس، كما إتهمته بمسؤوليتة في مقتل السلطان عبد العزيز وسعيه إلى تغيير شكل الدولة وإقامة حكم جمهوري»[١] .

وبعد أن اكتمل التحقيق أبلغ راغب باشا مدحت باشا وخمسة عشر متهمًا آخر من ذكور وإناث[٢] بلائحة الاتهام والتي وصفها مدحت باشا : «بأنها أشبه برواية جنائية مُثلت على مسرح العدالة وأنها لا تعدو أن تكون مجموعة من المفتريات والأكاذيب حافلة بالتغيير والتحريف والشطب والزيادة والنقصان وأنها تتضمن واحدًا وستين تحريفًا وأكذوبة»[٣] .

بدأت المحكمة أعمالها يوم الاثنين ٢٧ يونيو ١٨٨١م الموافق ٣٠ رجب ١٢٩٨هـ في قصر مالطة وهو جزء من قصر يلديز الذي كان سجنًا لكافة المتهمين وقد عرفت المحاكمة باسم محكمة يلديز .واستمرت المحاكمة لمدة ثلاثة أيام فقط برئاسة سروري باشا وخرستو فوريدي أفندي الرئيس الثاني للمحكمة وعضوية توفيق أفندي وأمين أفندي وحسين بك والأرمني قفور أفندي[٤] .

---

(١) لتفصيل أكثر عن التحقيق وأسئلة اللجنة ، حتاته : المرجع السابق ٨٩ـ ١٠١.

(٢) لمعرفة أسمائهم يرجع إلى ، محمد علي : المرجع السابق١٨٠ـ ١٨١.

(٣) حتاته : المرجع السابق ، ١٠١.

(٤) المرجع نفسه ، ١٠٥ـ١٠٦.

خلصت أعمال المحاكمة إلى إصدار أحكام بإعدام كل من مدحت باشا والداماد[١] محمود جلال الدين باشا صهر السلطان عبد الحميد والداماد نوري باشا وهو أيضًا صهر للسلطان (كلاهما كانا متزوجين من أختين من أخوات السلطان عبد الحميد الثاني) وأشخاص آخرين ليسو بذات أهمية هؤلاء الثلاثة ثم استبدلت أحكام الإعدام على الثلاثة إلى السجن المؤبد مدى الحياة في قلعة الطائف في الحجاز[٢] .

وأن استبدال حكم الإعدام بالسجن المؤبد كان بأمر مباشر من السلطان عبد الحميد الثاني الذي يصف ذلك نصًا بقوله : «أخذت علمًا بسير المحاكمة ونتيجتها أأعفو عن مدحت باشا لاشتراكه في قتل عميّ السلطان عبد العزيز ولكني لا أستطيع العفو عن وزير وصدر أعظم عثماني يتعاون مع دولة أجنبية لا بد أن موقفه أثناء القبض عليه ورغبته اللجوء إلى القنصلية الإنجليزية جعلاه يفصح بوضوح عمن يثق به وعمن يخدمه . ومع كل ذلك فإني تذكرت خدماته التي قدمها للدولة أثناء ما كان واليًا وخففت حكم الإعدام الصادر ضده إلى السجن»[٣] .

كان اختيار الطائف لسجن مدحت باشا ورفاقه من قبل السلطان عبد الحميد الثاني ربما يعود إلى أسباب عدة منها بعد الطائف عن العاصمة استانبول وهو ما يجعل السلطان وحكومته في أمان من محاولة تهريب مدحت أو تأثير مدحت على مؤيديه وكبار رجالات الحكومة ، إضافة إلى حصانة الطائف ووجود حامية

---

(١) داماد لقب الصهر والنسب والمتزوج من ابنة السلطان وكان في العادة من كبار رجال الدولة العثمانية ، سهيل صابان : المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية ، الرياض ـ مكتبة الملك فهد الوطنية ، ١٤٢١هـ ، ١٠٩.

(٢) أوزتونا : المرجع السابق ، ٢: ١٢٧.

(٣) حرب : المرجع السابق ، ١١١-١١٢.

عثمانية كبيرة تبلغ (٣٠٠٠) جندي كونها أي الطائف كانت أحد المراكز العسكرية الرئيسية للحكم العثماني في إقليم الحجاز إبان فترة الحكم العثماني الثاني للإقليم[١] . كما أن اختيار الطائف قد يبعد أي تهم قد توجه للسلطان فيما لو مات أو قتل مدحت باشا ورفاقه كون الطائف بعيدة جدًا عن مركز إقامة السلطان وصعبة التواصل مع العاصمة .

وصل مدحت باشا ورفاقه المحكومين إلى الطائف في بداية شهر رمضان من عام ١٢٩٩هـ/ ٨ يوليو ١٨٨١م وسجنوا في قلعتها الرئيسية الواقعة في منطقة باب الريع .

وقد استمرت مدة بقاء مدحت باشا في سجنه في الطائف ثلاث سنوات ؛ التفها الغموض وسرت عنها شائعات وأقاويل وقصص خيالية وبأسلوب روايات ومغامرات وكلها تتمحور حول كيفية التخلص من مدحت باشا ورفاقه مرة بدس السم له في الحليب الذي يشربه ، ومرة في الطعام الذي يتناوله ، ومرة برشوة خادمه المكلف بخدمته في السجن بترك الباب مواربًا للحراس ليتمكنوا من الدخول علي مدحت ليلًا وقتله[٢] .

كما أن بعض المصادر التاريخية المعاصرة تميل إلى تصديق الأخبار التي ترددت أنذاك من أن إنجلترا حاولت إنقاذ مدحت باشا من سجنه في الطائف وتهريبه إلى أوربا بأرسالها طرادًا حربيًا إلى مياه جدة مهمته إنقاذ مدحت باشا ورفيقه الدماد محمود باشا وأنه تم القبض في الطائف على شخص إنجليزي متنكر بزي عربي كان مبعوثًا من إنجلترا لإنقاذ الاثنين[٣] .

---

(1) AL-AMR, *Ibid.*, pp.91-93.

(٢) محمد علي : المرجع السابق ، ١٨٧.

(٣) أوزتونا : المرجع السابق ، ٢: ١٢٩.

لكن ومن خلال مذكرات كل من السلطان عبد الحميد الثاني والتي ترجمها وحققها الدكتور محمد حرب ومذكرات مدحت باشا التي كتبها إبان فترة سجنه في الطائف وتم تسريبها إلى أهله وترجمها وحققها يوسف حتاته وصديق الدملوجي، فيتضح أن فترة سجن مدحت باشا شهدت فترات تجاذب ما بينه وبين السلطة العثمانية المركزية في استانبول والسلطة العثمانية في الحجاز سواء المتمثلة في شخص والي الحجاز عثمان نوري باشا أو شريف مكة المكرمة الشريف عبد المطلب بن غالب. من ذلك ما يرويه مدحت باشا عند بداية وصوله إلى سجن الطائف حيث يقول نصًا: «وكتب المابين[١] إلى الشريف وإلى الوالي أمرًا قال لهما فيه أن هؤلاء قد نفوا والمابين يخشى فرارهم فلا تغفلوا أمر مراقبتهم، فأمر الشريف بوضع قيود الحديد في أرجل رفاقنا ثم أمر برفعها فأخذت لأن مرضهم قد اشتد وسدوا النوافذ بالحديد»[٢].

مذكرات مدحت باشا مليئة بالوصف الدقيق للمعاناة التي وجدها في سجنه والمعاملة التي كان يلقاها من حراسه ومن السلطة العثمانية ومن ذلك التضييق عليه وعلى رفاقه في استلام الرسائل البريدية أو المبالغ النقدية المرسلة لهم من أسرهم أو التدخل في طعامهم وشرابهم والتي وصلت إلى محاولة تسميمهم من قبل والي الحجاز الذي كان يهدف الي نيل مكافأة دنيوية.

حتى في مرضه يقول مدحت باشا أن السلطان العثماني وسجانيه لم يقدموا له العناية أو الرعاية التي يحتاجها مما أدى إلى اشتداد حالة المرض حتى أصبحت

---

(١) المابين هو القسم الواقع في القصر السلطاني ما بين جناح الحريم وما بين الدوائر الخارجية وهو المكان الذي كان يقضي فيه السلطان يومه وترفع إليه فيه القضايا من قبل الصدر الأعظم ليأمر بما يراه، صابان، مرجع سابق، ١٩٨.

(٢) حتاته: المرجع السابق، ١٢٢.

خراجًا أوصله إلى «براثن الموت» وأنه كان يتمنى الموت لأنه كما يراه فيه لذة مفارقة الحياة[١] .

في ليلة ١٠ـ١١ من شهر رجب سنة ١٣٠١هـ الموافق ٦ـ٧ مارس ١٨٨٤م وبعد ثلاث سنوات سجن توفى مدحت باشا من ورم خبيث في جنبه يحتمل أن يكون سرطانًا حسب رواية السلطات العثمانية أو خنقًا حسب رواية آخرين منهم رفقائه في السجن كشيخ الإسلام السابق خيري أفندي وفخري بك[٢] ، وكان قد خنق معه أيضًا الدماد محمود باشا وقد صادرت السلطة العثمانية أموال مدحت باشا وباعتها في السوق بعد أن نهب الموظفون منها ما نهبوا[٣] .

وأن موت مدحت باشا بتلك الطريقة الغامضة تحول إلى اتهام ضد السلطان عبد الحميد الثاني من كل أنصار مدحت ومن جماعة العثمانيين الأحرار الذين نجحوا بعد ذلك في إسقاط السلطان نفسه من الحكم وإعادة العمل بالدستور ، كما أن دول أجنبية أخرى بما فيها إنجلترا شككت في الرواية الرسمية للسلطات العثمانية حول موت مدحت باشا وهو ما دفع السلطان إلى نفي الاتهام خاصة بعد عزله من السلطة . ففي مذكراته المنشورة يقول : «يدّعون أن مدحت باشا ومحمود باشا خنقا ذات ليلة في سجون قلعة الطائف بأيدي ضباط وجنود معروفين بالاسم . وحتى لو كان هذا صحيحًا فليس لي دخل فيه بل ولا أرضي عنه»[٤] .

كما أن السلطان وفي محاولة نفي اتهامه بمقتل مدحت باشا يسعى إلى إسقاطها على أمير مكة المكرمة الشريف عبد المطلب الذي يصفه بأنه كان من

---

(١) المرجع نفسه ، ١٢٧، ١٣٢ـ١٣٣.

(٢) محمد علي : المرجع السابق ، ١٨٧ـ١٨٨.

(٣) حتاته : المرجع السابق ، ١٣٦.

(٤) حرب : المرجع السابق ، ٩١.

أعدى أعداء مدحت باشا ومحمود باشا وأن الشريف عندما أمر بوضع الحديد في أرجل الإثنين فإن السلطان هو الذي أمر برفعه وأن ذلك كان سببًا في عزل الشريف من إمارة مكة المكرمة بواسطة والي الحجاز عثمان نوري باشا . بل ويروي السلطان رواية على لسان الشريف عبد المطلب يقول فيها أن عبد المطلب أرسل إليه يخبره بمحاولة حدثت من بعض الأجانب تهدف إلى تهريب مدحت باشا ومحمود باشا إلى مصر وأن الشريف عبد المطلب منع ذلك وقد أبلغ السلطان واليه على الحجاز بالتنبه إلى الأمر مع عدم إيذاء المتهمين أو الضغط عليهم مراعاة لما تقتضيه الإنسانية . ويختم السلطان قوله نافيًا أي علاقة له بموت أو مقتل مدحت باشا . أعود فأكرر أني كتبت هذه الأسطر ليس من أجل ذاتي وإنما من أجل حماية اسمي من هجاء غير عادل[١] .

وعودة إلى موت مدحت باشا ؛ فما ورد في مذكراته هو أو ما نقلته مصادر تاريخية عن الكيفية التي مات بها فالشك لا زال قائمًا حول إن كان موتة موتًا طبيعيًا أم أنه خنق هو ورفيقه محمود باشا من قبل الحراس المكلفين بسجنهم في قلعة الطائف، وإن كان يبدو أن ما تذكره بعض المصادر المعاصرة من أن مدحت باشا ورفيقه ماتا مقتولين لكن ليس بأمر السلطان عبد الحميد ذاته بل من قبل السلطات العثمانية في إقليم الحجاز التي خشيت من تهريب إنجلترا ، لهما خاصة بعد أن علم السلطان عبد الحميد بذلك وأرسل برقية شديدة اللهجة إلى والي الحجاز عثمان نوري باشا يحذره بأنه لن يقبل منه أي عذر فيما لو أن مدحت باشا نجح في الهروب من سجنه والخروج من الطائف ، فأقدم الوالي على اغتيال مدحت باشا لكي ينهي المسألة من أساسها ويتخلص من عتاب السلطان إن نجح مدحت باشا في الهرب بمعاونه إنجلترا[٢]، أكثر قربًا من الحقيقة .

---

[١] المرجع نفسه ، ٩١ـ ٩٢.

[٢] أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ١٨٩.

نفي وسجن مدحت باشا ومقتله في قلعة الطائف جعل الطائف أنذاك في قلب الأحداث سواءً داخل الدولة العثمانية أو خارجها فمدحت باشا كان أحد أهم وأعظم رجالات الدولة العثمانية في فترة التنظيمات وهو الذي أعد وأخرج الدستور العثماني في عام ١٨٧٦م ، وهو ما يطلق عليه العثمانيون وغيرهم أبو الدستور وقد تحول مع الزمن إلى أيقونة للأحرار العثمانيين ولمعارضي السلطان عبد الحميد الثاني[١] ولمن أتى بعدهم والذين نجحوا في إسقاط حكم ألأخير وإعادة العمل بالدستور فيما عرف بالمشروطية الثانية .

مشاركة الطائف في أحداث الثورة العربية الكبرى

في فجر يوم السبت التاسع من شهر شعبان عام ١٣٣٤هـ الموافق ١٠ يونيو ١٩١٦م أطلق الشريف الحسين بن علي أمير مكة المكرمة رصاصة إعلان الثورة العربية ضد الدولة العثمانية ، فأعلنت في مكة المكرمة والطائف وجدة وينبع والوجه وسائر مدن الحجاز[٢] . وهاجمت القوات العربية الثكنات العسكرية العثمانية في كامل أنحاء وأحياء مكة المكرمة ومنها التي في حارة جرول وقلعة أجياد ومركزي الحميدية والصفا وحاصروا الجنود العثمانيين داخلها وقطعوا عنهم كل إمدادات ووسائل الاتصال من هاتف وبرقيات مطالبين الأتراك بالخروج من الثكنات والتسليم لجنود الثورة[٣] . وسقطت قاعدة جرول في اليوم التاسع للثورة وأُسر فيها ألف ومائتا جندي وضابط تركي ، وأما قلعة أجياد فقد هوجمت وأخذت عنوة بعد تجرؤ قائدها اليوزباشي (النقيب) كامل أفندي على ضربه البيت الحرام[٤] .

---

(١) أوزتونا : المرجع السابق ، ١٢٨.

(٢) عبد الله بن الحسين (الملك) : الآثار الكاملة ، عمان ـ الدار المتحدة للنشر ١٩٨٥م ، ١١٦.

(٣) الغازي : المرجع السابق ، ٢٩٥ـ٢٩٦؛ أحمد السباعي : تاريخ مكة ، الرياض ـ الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة ١٤١٩هـ ، ٢: ٦٨١.

(٤) عبد الله بن الحسين : المرجع السابق ، ص ١١٧.

كما بدأت المناوشات والاشتباكات بين القوات العربية التابعة للشريف الحسين في بقية مدن الحجاز ومنها المدينة المنورة وكانت القوات التي تحاصر المدينة المنورة تحت قيادة ابنيّ الحسين الشريف فيصل والشريف علي كما كان الابن الثالث الشريف عبدالله يقود القوة العربية التي تحاصر القوات التركية في مدينة الطائف . ولم تسلم مدينة جدة أيضًا حيث حاصرتها القوات العربية بمساعدة ثلاث بوارج بريطانية قامت بضرب تحصينات الحامية التركية وقد ساهم ذلك تسريع تسليم الحامية التركية بعد ثلاثة أيام فقط من بدء الاشتباكات[١] .

كانت قيام الثورة العربية وتحت قيادة الحسين كنتيجة لعوامل عدة فصلها المؤرخون[٢] في تسجيل إرهاصاتها وبدايات انطلاقة شرارتها الأولى ، لكن ما يهمنا في هذا المقام هو أن ما دفع الشريف الحسين إلى الثورة ومهاجمة العثمانيين إنما هو سياسة الاتحاديين الذين كانوا يسيطرون على كل مقدرات وشؤون الحكم في العاصمة العثمانية استانبول الذين سعوا إلى الضغط على الشريف الحسين لعدم اتفاقه معهم في سياساتهم العدائية ضد العرب بل إنهم سعوا إلى عزله من وقت مبكر خاصة بعد إصدار قانون الولايات الجديد الصادر عام ١٩١٣م (١٣٣١هـ) عندما عينوا وهيب باشا واليًا على الحجاز وهو المعروف بصرامته وشدة تحمسه لمبادئ جمعية الاتحاد والترقي وجمعوا له السلطتين التنفيذية والإدارية وتزويده بعدد من القوات مع تعليمات بإضعاف ما للشريف الحسين أمير مكة المكرمة أنذاك من نفوذ والقبض عليه إن استدعى الأمر إضافة إلى إلغاء الامتيازات التي كانت تمنحها الدولة العثمانية للحجاز[٣] .

---

(١) السباعي : المرجع السابق ، ٢: ٦٨٢.

(٢) أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى ، القاهرة ـ مطبعة عيسى الحلبي ١٩٣٤م .

(٣) وهيم طالب محمد : تاريخ الحجاز السياسي ، ١٩١٦ـ١٩٢٥م ، بيروت ـ الدار العربية للموسوعات ٢٠٠٧م ، ٣١.

وفيما يتعلق بالطائف ودورها فلقد كان لها دورًا محوريًا في أحداث الثورة العربية منذ إرهاصاتها المبكرة، حيث كانت المراسلات الأولى التي تتم بين الشريف الحسين وبريطانيا تتم من الطائف حين أرسل السيد رونالد ستورز أحد موظفي القنصلية البريطانية في القاهرة رسالة إلى الشريف عبدالله بن الحسين في الطائف يعرض فيها استعداد بريطانيا العظمى إمداده ووالده الشريف حسين بكل ما هم في حاجة إليه لإعلان استقلال العرب استقلالًا تامًا عن الدولة العثمانية وكان ذلك في ١٩١٤/١١/١م الموافق ١٣٣٢/١٢/١٢هـ، وبعدها بشهر عاد السير هنري مكماهون المندوب السامي البريطاني في مصر إلى إرسال رسالة أخرى يؤكد فيها استعداد بريطانيا لمساعدة العرب لنيل الاستقلال[1]، وكلا الرسالتين كانتا موجهتين إلى الشريف عبدالله لعرضهما على والده الشريف الحسين بن علي وهما في الطائف.

كما أن الطائف كانت مقر لما عرف باسم «مؤتمر الطائف» وهو المؤتمر الذي عقده الشريف الحسين في شهر محرم١٣٣٤هـ/ ديسمبر ١٩١٥م بحضور أبنائه فيصل وعبدالله وعلي وبعض المقربين إليه لتدارس الأوضاع في ظل الوعود البريطانية وسياسة الاتحاديين الأتراك العدائية ومطالب القوميين العرب في بلاد الشام، وكانت قرارات المؤتمر كما يلي:

١) إعلان الثورة على العثمانيين بالتعاون مع الإنكليز على شروط يتفق عليهامع الأخيرين.

٢) يعود الأمير فيصل إلى دمشق لإكمال مباحثاته مع القوميين العرب وللاتفاق على التفاصيل.

---

(١) هنادي يوسف غوانمة: المملكة الهاشمية الحجازية، عمان ـ دار الفكر للنشر والتوزيع ١٩٨٩م، ٥٥ـ٥٦.

٣) يتولى الأمير عبدالله تنظيم القبائل في مكة المكرمة والطائف .

٤) يتولى الأمير علي تنظيم القبائل حول المدينة المنورة .

٥) يبدأ الشريف الحسين مباحثاته مع الإنكليز في مصر تمهيدًا للوصول إلى الاتفاق النهائي[١] .

قام الأمير عبدالله بمهامه التي أوكلها إليه مؤتمر الطائف فأخذ يكمل استعداداته في الطائف بتنظيم قبائلها وكان ذلك بعلم ومشاهدة الوالي العثماني للحجاز الفريق غالب باشا الذي لم يكن يدرك رغم شكه أن ذلك إنما هو استعداد لأحداث جلل ستغير الكثير من الواقع القائم آنذاك[٢] . وقد استخدم الأمير عبدالله معه أسلوب التعمية حينما أعلمه بأنه ما قدم إلى الطائف بقواته العربية إلا من أجل تأديب قبيلة البقوم ، وقد كان أمير الطائف من قبل الشريف الحسين بن علي الشريف شرف بن راجح بن فواز بن ناصر ويساعده الشريف حسين الجودي من الأشراف ذوي جود الله[٣] .

بدأت مشاركة الطائف في الاشتباكات الفعلية في الثورة العربية بعد إعلان الشريف الحسين لها في مكة المكرمة وكانت القوات العربية تحت قيادة الأمير عبد الله ابن الحسين حين خرج من داخل الطائف إلى خارجها حيث معسكره في منطقة القديرة إحدى ضواحي الطائف آنذاك وحي من أحيائها في أيامنا هذه لغرض حصار شامل عليها وعلى الثكنات العسكرية التي كان يقيم فيها الجنود الأتراك وذلك في اليوم الثاني لإعلان الثورة في مكة المكرمة أي في العاشر من شهر شعبان ١٣٣٤هـ .

---

(١) أمين سعيد : المرجع السابق ، ٥٧، هنادي : المرجع السابق ، ٦٢، وهيم طالب : المرجع السابق ، ٤٩- ٥١.

(٢) وهيم طالب : المرجع السابق ، ٥٧.

(٣) عبد الله بن الحسين : المرجع السابق ، ١١٧- ١١٨.

كانت قوات الأمير عبد الله تتكون من (٧٠) هجانًا عقليًا يرافقونه وأقام ثلاثة من القبائل أقامها على النحو التالي : قبائل بني سعد من عتيبة وكان رئيسهم الشيخ تركي بن هليل في الشمال الغربي من الطائف ويدخل فيه الشرق والقسم الجنوبي وهو مؤلّف من قبائل عوف وثمالة وبني سفيان وهذيل والقسم الثالث وهو الغربي ومؤلف من قبائل قريش وطويرق والنمور[١] .

في ليلة السبت الحادي عشر من شهر شعبان ابتدأ هجوم القوات العربية من الجبهة الشمالية والتي كان يديرها الأمير عبدالله شخصيًا فقامت القوة العربية بقطع وسائل الاتصال البرقية عن الطائف وكانت القوات التركية قد أحكمت تحصين سور الطائف وحفروا خندقًا متهجًا من الشرق إلى الغرب إلى منطقة معشي ثم ينحرف جنوبًا إلى هضبة أم السكارى في منطقة قروة ثم يتجه شرقًا بمحاذاة برج غلفة بالقرب من باب الريع ويتجه إلى الشمال ليوازي وادي وج ويستمر غربًا حتى يتصل بطرفه الآخر محكمًا مناعة السور[٢] . فخرجت بعض القوات التركية إلى جبال أم الشيع والمداهن وشرقرن في شمالي الطائف وهضبة أم السكارى في الغرب منها[٣] .

كان هجوم القوات العربية عنيفًا فقد قدمت البواردية الخواص وهم الرماة يتقدمهم راقي بن عفار ومن معه من فرع الثبتة الجوازي والقثمة الغشاشمة والروانية وبنو سعد وآمرهم جميعًا الشريف سلطان بن راجح حيث عاد المهاجمون بأسرى وغنائم[٤] .

---

(١) الغازي : المرجع السابق، ٤: ٣٠٨ـ ٣٠٩.

(٢) عبد الله بن الحسين : المرجع السابق، ١٢١.

(٣) الغازي : المرجع السابق، ٤: ٣٠٨ـ ٣٠٩.

(٤) عبد الله بن الحسين : المرجع السابق، ١٢١.

وعلى مدى ثلاثة أشهر استمرت المناوشات والاشتباكات والمفاوضات ما بين الطرفين فبعد أيام من بدء القتال وصلت للقوات العربية إمدادات جديدة من الأسلحة والمتمثلة في عدد من البنادق في الوقت الذي تمكنت فيه القوات التركية من الاستيلاء على منطقة الشهداء وهي إحدى أحياء الطائف الكبرى في أيامنا هذه وتقع في الجنوب الشرقي من الطائف ولم تتمكن القوات العربية بقيادة الشيخ فاجر بن شليويح الروقي من عتيبة من إخراجهم من المنطقة بسهولة إلا بعد أن قتلت منهم (٤٨) جنديًا وفي مكان أخر من الطائف تمكنت قوات من قبائل هذيل الطلحات وآل حجة من بني سفيان من إخراج الترك من هضبة أم السكارى بعد أن قضوا على حاميتها بأكملها حيث لم ينجُ منها أحد، واستولت القوات العربية على مدفعين من أسلحة القوات التركية مما أدى إلى انسحاب قوة تركية أخرى كانت مرابطة في جبال أم الشيع والمداحين وشرقرق فاستولت عليها القوات العربية[١].

لم يفت ذلك في عضد القوات التركية بل ردت مدفعيتهم بقوة على المهاجمين، فلم يتمكن قبائل بنو سعد من تحقيق أهدافهم في الجهة الشمالية من الطائف، فاضطروا إلى التراجع إلى نواح منطقة شبرا. كما تمكنت القوات التركية من إحراق قصور إمارة مكة المكرمة السبعة. وبعد أن طال القتال أمر الأمير عبدالله بعد تهدئته لقواته مما حققته القوات التركية، أمر بالهجوم على الجهة الجنوبية والجهة الغربية، وكان على رأس قوة تلك الجهات الشريف فهد بن شاكر، ومعه عشائر النمور وهديل وبني سفيان ولما بدأ سلاح الطرفين ينفذ تخوف الأمير عبدالله بن انسحاب القوات التركية إلى مكة المكرمة عن طريق جبل كرا أمر الشريف فهد بقطع طريق كرا[٢].

---

(١) عبد الله بن الحسين: المرجع السابق، ١٢٣. الغازي: المرجع السابق، ٤: ٣١٠.

(٢) عبد الله بن الحسين: المرجع السابق، ١٢١- ١٢٢.

ثم تواصلت إمدادات السلاح تتدفق إلى القوات العربية حيث وصلها في النصف الثاني من شهر رمضان ستة مدافع وستة رشاشات وفي شهر شوال وصلها مدفع ضخم من طراز (هاوترز) وهو ما مكنها في العاشر من شهر ذو القعدة من إجبار القائد التركي للحامية العثمانية إلى التسليم والقبول بالشروط التي وضعتها القوات العربية على أن يخرج هو ومن معه من الضباط وكانوا قرابة الخمسين ضابطًا حيث لجأوا إلى منطقة شبرا إحدى ضواحي الطائف أنذاك وهي من أحيائها في وقتنا الحاضر وفي القلب منها[١] .

بعد ذلك قامت القوات العربية بمهاجمة الثكنة العسكرية التركية الرئيسية في الطائف وهي ثكنة (قشلة) حصينة مربعة الشكل مساحتها حوالي (٢٥٠) متر في الطول و(٢٥٠) مترًا في العرض وهي متصلة بخنادق عميقة وفي مرتفع في أعلاها من جهة منطقة باب الريع من الجهة الجنوبية[٢] قلعة ذات أبراج أربعة وعليها أربعة مدافع من طراز (كروب) فاضطر قائد القوات التركية الفريق غالب باشا إلى التسليم فأرسل رسالة إلى الأمير عبدالله يقول فيها :

(إلى قائد الجيوش العربية الشرقية الشريف عبدالله بن الحسين أنه بالرغم من كثرة العتاد والذخيرة رأيت لزوم حقن الدماء ولذلك أرجو قبول هيئة منّا لنتذاكر معكم في معاملة التسليم والتسلم وفق الحرب الدولية أو تتكرموا بإرسال هيئة منكم إلينا . بإمضاء قومندان القوة العثمانية المحصورة ، الفريق غالب باشا)[٣] .

---

(١) الغازي : المرجع السابق ، ٤: ٣١٠ـ ٣١١.

(٢) شاهدها الباحث في صغره وشبابه ولم يتم هدمها حتى وقت قريب جدًا في عهد الملك خالد بن عبد العزيز (١٣٩٥ـ١٤٠٢هـ) في عام ١٣٩٧هـ حيث استبدلت القشلة والقلعة بما يعرف بمجمع الوزارات وهي مباني لفروع الوزارات عند قدومهم للطائف في فصل الصيف .

(٣) عبد الله بن الحسين : المرجع السابق ، ١٢٤ـ ١٢٥.

فجاوبه الأمير عبدالله بالموافقة، ثم أرسل غالب باشا القائد سليمان بك ورئيس أركان الحرب ناظم بك وأمير الاي حيدر بك[١]، فحضروا إلى قصر الشريف فتن بن محسن في الميساء وكان يرأس الهيئة العربية المفاوضة القائد سعيد المدفعي ومعه الرئيس (النقيب) فؤاد والملازم أحمد حلمي فتقرر التسليم على الشروط التالية :

١ـ يخرج الوالي والقائد والأمراء العسكريون حتى رتبة بكباشي[٢] في تلك الليلة إلى قصر شبرا .

٢ـ تترك الطوابير (الفرق) تحت قيادة الرؤساء اليوزباشيه[٣] والملازمين الأولين والملازمين الثانين .

٣ـ تتراجع تلك الطوابير في منتصف الليل إلى الثكنة الكبرى وفي تلك الساعة تتقدم القوات الراكبة العربية بقيادة الأشراف فهد بن شاكر وسلطان بن راجح وحسين الجودي لتحتل الأبواب وتؤمن السلام والأمن العام .

٤ـ مع الفجر يتقدم القائد التركي سعيد بك ومن معه ليضعوا أيديهم على الأسلحة والمدافع فتودع في مخازنها وتمهر بالشمع الأحمر .

٥ـ تتكفل القيادة العربية بالإعاشة والتموين .

٦ـ تصرف للهيئة المستسلمة مرتبات ثلاثة أشهر .

٧ـ تُنتظر الأوامر بالتوجه إلى الجهة المقتضية للقوة المستسلمة .

---

(١) بالتركي (ميرآلاي) وتعني منصب عسكري استخدم لرئيس الفوج وهو ما يوازي لقب «عقيد» في الوقت الراهن . د. سهيل صابان : المعجم الموسوعي ، ٢٢٠.

(٢) معناه : رأس الألف ، وهي رتبة عسكرية عثمانية ، ومازالت تستخدم في تركيا الآن ، استعملت في الجيوش العربية ثم استبدلت بها رتبة المقدم . صابان ، مرجع سابق ، ٦٦.

(٣) أصحاب الرتب العسكرية (نقيب) . المؤلف .

وفي اليوم التالي أي (١١) ذو القعدة من عام ١٣٣٤هـ/ ٩ سبتمبر ١٩١٦م جرى إنزال العلم العثماني عن القلعة ورفع بديلًا عنه العلم العربي[١] .

كانت القوة التركية تتكون من ثلاثة آلاف جندي مقيمين في عدد من الثكنات والقلاع والحصون منها الثكنة الكبرى التي تحدثنا عنها وهي الواقعة بين غرب الطائف إضافة إلى قلاع أصغر متناثرة على جهات الطائف الأربع منها حصن قائم على جبل ابن منديل من الجهة الجنوبية ولا يبعد عن قلعة باب الريع سوى (٢٥) مترًا وعليه مدفع وحامية من الجند ثم برج آخر ليس ببعيد عنه عليه مدفع وعدد من الجنود ويسمى برج (غلفة) مهمته حماية الجهة الجنوبية من الطائف ثم منزل يسمى (بيت البخاري) وبه عدد (٢٠٠) جندي تركي إضافة إلى بيت آخر داخل بستان وبه (٢٠٠) جندي وبيت الشيخ درويش العجيمي وهو بغرب برج غلفة وبداخله ما لا يقل عن (٥٠) جنديًا . وكان قائد القوات التركية الوالي والقومندان الفريق غالب باشا والي الحجاز العثماني ، يساعده كل من الميرلاي أحمد بك والبكباشي سليمان بك[٢] .

كما استخدم الأتراك أسطح مسجد عبدالله بن عباس والعديد من المنازل المجاورة للمسجد كمتاريس وأقاموا بها عددًا من جنودهم منها منازل الدباغ وعبد الرحمن الوزندار وابن محمود والشريف عبدالله بن محمد . وفي منطقة باب الحزم كانت للأتراك ثكنتان عسكريتان كما حولوا ضاحيتي قروة والسلامة وهما الآن من أحياء الطائف الكبرى ، إلى حصون عسكرية كذلك الأمر في أحياء معشي والعقيق وكانت كل تلك الأماكن محمية بالجنود والمدافع وكلها استسلمت للقوات العربية بعد أن قُتل منهم (٧٠٠) جندي وجرح (٣٠٠) جندي

---

[١] عبد الله بن الحسين : المرجع السابق ، ١٢٤ـ ١٢٥.

[٢] عبد الله بن الحسين : المرجع نفسه ، ١١٧ـ ١١٨.

أخر واستسلم الباقون وعددهم (٢٠٠٠) جندي و(٥٠) ضابطًا وقائدهم برتبة جنرال أركان حرب[١].

لم يعامل الأمير عبدالله وقواته العربية من أهالي وقبائل الطائف المستسلمين من الجنود الأتراك بغير حفظ ما كان بينهم من علاقات ودية قبل بدء الثورة وتغير الأحوال بين العرب والترك فلم يحرروا الجنود لا من سيوفهم ولا من مسدساتهم وحموا أسرهم وعوائلهم ولم يزد فعلهم معهم على إرسالهم أسرى إلى مكة المكرمة ومنها إلى جدة إلى معسكر الأسر[٢].

سقوط الطائف في يد القوات العربية كان أحد الأسباب التي أدت إلى زيادة الضغط على القوات التركية المُحَاصَرَة في المدينة المنورة، والتي كانت قد أبدت مقاومة عنيفة للقوات العربية التي يقودها الأميرين فيصل وعلي نجلي الحسين. فقد أتت الأوامر للأمير عبدالله وهو يحاصر الطائف بأن يسرع في دخولها ليتم تحويله مع قواته إلى المدينة المنورة بمساندة أخويه في حصار القوات التركية المتمترسة داخلها. وذاك ما حدث فعلًا فبعد أن استسلمت الحامية التركية في الطائف توجه الأمير عبدالله إلى المدينة المنورة وتحت قيادته وبرفقته الجيش الشرقي العربي[٣].

مما سبق يتضح أن الطائف لعبت أدوارًا هامة في مسيرة الأحداث السياسية التي شهدتها ولاية الحجاز في فترة الحكم العثماني الثاني للإقليم والممتدة مابين أعوام ١٢٥٦-١٣٣٤هـ/١٨٤٠-١٩١٦م خاصة وأن الطائف كانت تمثل العاصمة الصيفية للإقليم بإقامة كل من أمير مكة المكرمة والوالي العثماني فيها إضافة الي

---

(١) المرجع نفسه، ٤: ٣١٣-٣١٤.

(٢) المرجع نفسه: ٤: ٣١١.

(٣) المرجع نفسه، ٤: ١٢٤-١٢٨، ١٣٣.

موقعها الجغرافي المميز وحصانتها ووجود حامية عسكرية عثمانية كبري بها. فالشريف عبد المطلب وفي كل تفاصيل نزاعه مع الوالي العثماني كامل باشا اتخذ من الطائف قاعدة رئيسية له سواءً في تحصنه بها أو في تجنيد قبائلها. كما أن السلطان عبد الحميد الثاني وهو يسعي إلى إبعاد ألد أعدائه وأكثرهم خطورة علي حكمه الوزير الأعظم مدحت باشا لم يري أفضل من الطائف منفىً وسجنًا آمنًا. ولم تكن مشاركة الطائف في الثورة العربية هامشية بل كانت محورية وأساسية انطلقت منها الاتصالات الأولية والمراسلات والاستعدادات التي ساهمت بشكل كبير في نجاح الثورة وإخراج العثمانيين ليس من الحجاز فقط بل ومن المشرق العربي بأكمله.

المراجع

أولًا: المراجع العربية

أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة: ١٩٣٤م.

أورخان محمد علي، السلطان عبد الحميد الثاني، حياته وأحداث عهده، مكتبة دار الأنبار، بغداد، ١٩٨٧م.

أوزتونا، يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، استانبول، ١٩٩٠م.

جون لويس بوركهارت، رحلات في شبه جزيرة العرب، ترجمة د. عبد العزيز الهلابي، ود. عبد الرحمن الشيخ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٢م.

داغستاني، د.عبد المجيد إسماعيل. الطائف، مدينة في مرحلة انتقال وتحول، وزارة الإعلام، الإعلام الخارجي، جدة: ١٩٨١م

دحلان، أحمد زيني، خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، المطبعة الخيرية، القاهرة، ١٣٠٥.

الحسين، عبدالله (الملك)، الآثار الكاملة، الدار المتحدة للنشر،عمان: الطبعة الثالثة، ١٩٨٥م.

أغلو، سنان معروف، نجد والحجاز في الوثائق العثمانية، دار الساقي، بيروت ٢٠٠٢م.

الغازي، عبدالله محمد، إفادة الأنام، تحقيق د. عبد الملك بن دهيش، مكتبة الأسدي، مكة المكرمة، ١٤٣٠هـ.

غوانمة، هنادي يوسف، المملكة الهاشمية الحجازية، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، الأردن: ١٩٨٩م.

القصير، عيسى علوي، الطائف القديم داخل السور في القرن الرابع عشر الهجري، الطبعة الثانية، الطائف، ١٤٣٤هـ.

المحامي، محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق د. إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، ١٩٨١م.

محمد صادق باشا، الرحلات الحجازية، إعداد وتحرير محمد همام فكري، بدر للنشر، بيروت: ١٩٩٩م.

محمد، وهيم طالب، تاريخ الحجاز السياسي، ١٩١٦-١٩٢٥م، الدار العربية للموسوعات، بيروت: ٢٠٠٧م.

ثانيًا: المراجع الأجنبية

SALEH MUHAMMAD AL-AMR, *The Hijaz Under Othoman Rule 1869-1914,* Riyad Univ. Press, Riyad, March 1978.

WILLIAM OCHSENWALD, *Religion, Society and The State in Arabia, The Hijaz Under Ottoman Control, 1840-1908,* Ohio State Univ. Press, Columbus 1984.

STANFORD SHAW, *Ezel Shaw, History of The Ottoman Empire and Modern Turkey,* Cambridge Univ. Press, Cambridge, 1977.

الملاحق

ملحق (١)

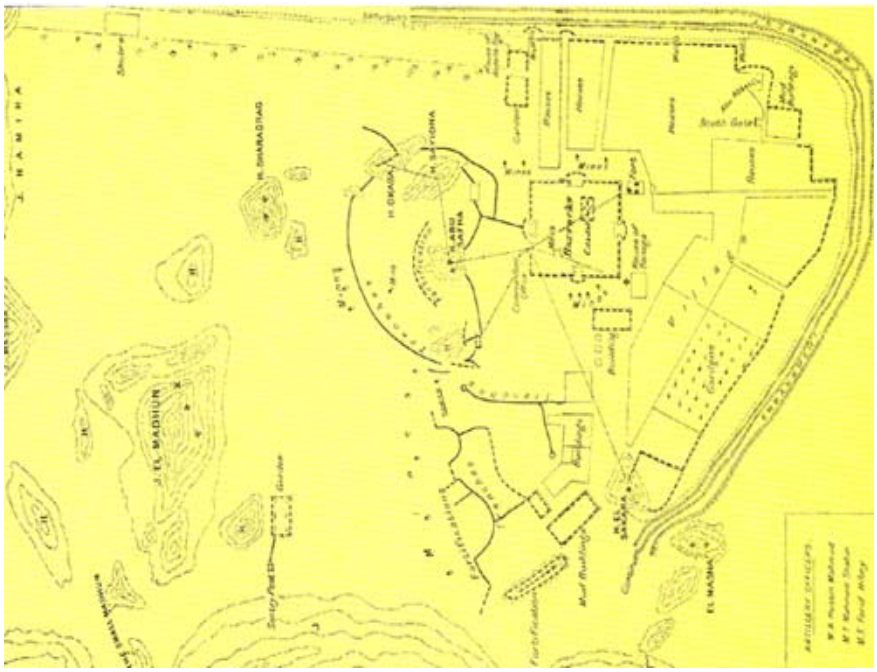

خارطة ترجع إلى عام ١٩١٦، تبين توزيع مدينة الطائف خلال العهد العثماني
من كتاب الطائف، د. عبد المجيد الداغستاني

ملحق (٢)

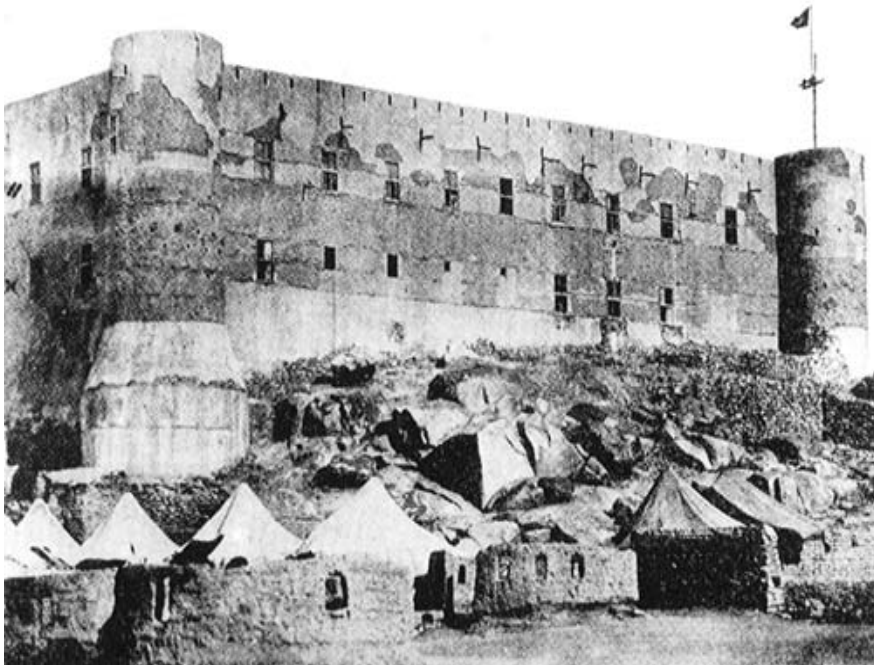

الواجهة الغربية لقلعة باب الريع (هدمت) عام ١٣١٨هـ (مجموعة عائلة مدحت باشا)
من كتاب الطائف، د. عبد المجيد الداغستاني

ملحق (٣)

البرج الجنوبي الشرقي وسور الطائف (الجميع هدم) في الخمسينات من القرن الرابع عشر الهجري
من كتاب الطائف القديم، عيسى القصير

ملحق (٤)

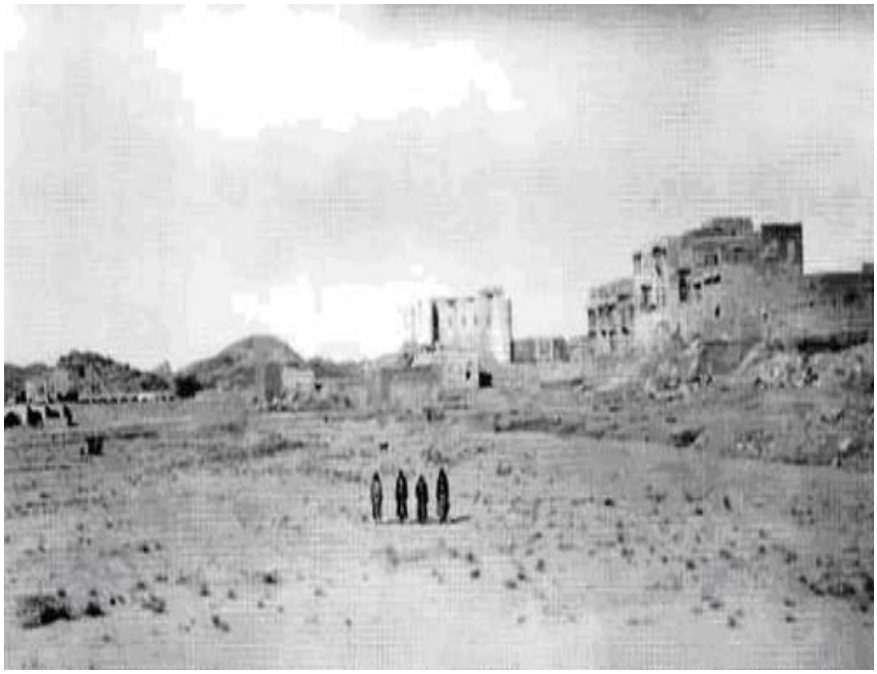

سور الطائف من جهة شبرا
أرشيف أمانة محافظة الطائف الإليكتروني

ملحق (٥)

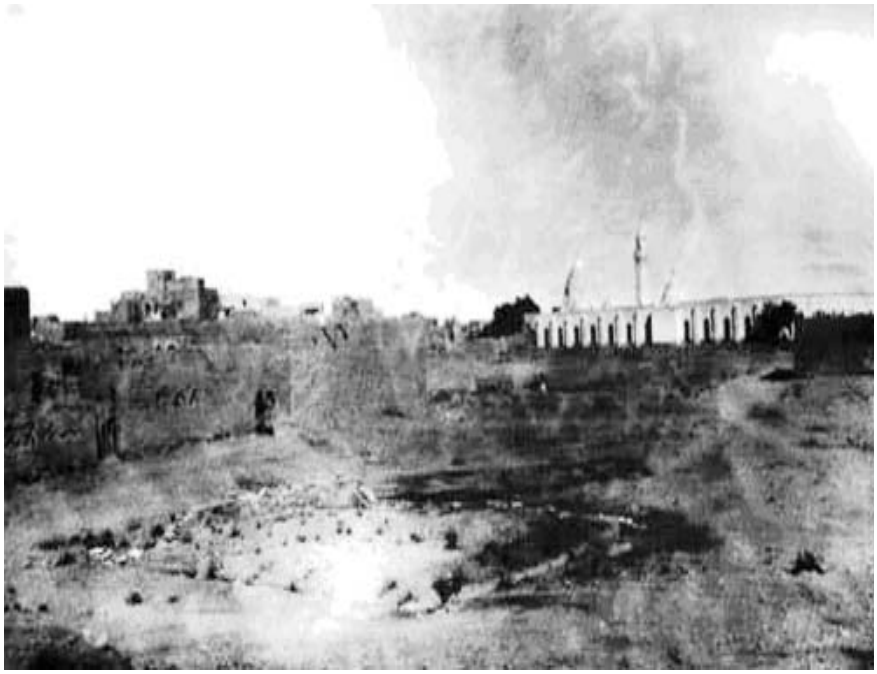

سور الطائف من جهة مسجد ابن العباس
أرشيف أمانة محافظة الطائف الإليكتروني

ملحق (٦)

قصر شبرا من كتاب الطائف القديم، عيسى القصير

ملحق (٧)

برج غلفة، من كتاب الطائف القديم، عيسى القصير